المزاح يأكل الهيبة!

اهتمَّ المصلحون والأدباء والعقلاء بتربية النفس ، وكان أحد الطرق الموصلة إلى ذلك التنبيه على خطورة المزاح والتمادي في ذلك ، وقد ورد على ألسنة أولئك حكم وعظات منها :

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : التبسُّم أبلغ في الإيناس من الضحك الذي قد يكون استهزاءً وتعجباً .

وقال حفيده سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : اتقوا المزاح ، فإنه حمقة تورث ضغينة .

وقال عاقل : من قلَّ عقله كثر هزله .

وقال أديب : على العاقل أن يتَّقي المزاح ، وينزِّه نفسه عن وصمة مساويه ، فإنه مخرج إلى القطيعة ، ومذهبة للهيبة والبهاء ، ومدعاة لتجرؤ الغوغاء والسفهاء .

وقال غيره :

كثرة الضحك من الرعونة[1] ، وضحكة المؤمن غفلة من قلبه .

وقال حكيم :

الضحك شاغل عن النظر في الأمور المهمة ، مذهل للفكر في النوائب الملمَّة ، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ، ولا من وصم به خطر[2] ولا مقدار .

---

(١) الرعونة : الحمق .

(٢) خطر : قدر ومنزلة .

وقال الحجاج بن يوسف الثقفي : المزاح يوغر[1] صدر الصديق ، وينفِّر الرفيق ، ويبدي السرائر ، ويظهر المعاير[2] ، ويجلب الشتم ويثير الحقد .

❊ ❊ ❊

قصة النواقيس :

لما أسنَّ معاوية بن أبي سفيان[3] أرق ، فكان إذا هوم (نام) أيقظته نواقيس الروم ، فلما أصبح يوماً دخل عليه الناس ، قال : يا معشر العرب ، هل فيكم فتىً يفعل ما آمره وأعطيه ثلاث ديات أعجِّلها وديتين إذا رجع ؟! فقام فتى من غسان فقال : أنا يا أمير المؤمنين .

قال : تذهب بكتابي إلى ملك الروم ، فإذا صرت على بساطه أذَّنت!

قال : ثم ماذا ؟ قال : فقط .

فقال : لقد كلَّفت صغيراً وآتيت كبيراً ، فكتب له وخرج ، فلما صار على بساط قيصر أذَّن ، فتناجزت البطارقة واخترطوا سيوفهم ، فسبق إليه ملك الروم فجثا عليه ، وجعل يسألهم بحق عيسى وبحقهم عليه أن يكفُّوا ، ثم ذهب به حتى صعد على سريره ، ثم جعل بين يديه ، ثم قال : يا معشر البطارقة ، إن معاوية رجلٌ قد أسنَّ وقد أرق ، وقد آذته

---

(١) يوغر : يحرك الغيظ .

(٢) المعاير : المعايب .

(٣) هو ابن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي ، مؤسس الدولة الأموية بالشام وأحد دهاة العرب الكبار ، كان فصيحاً حليماً وقوراً ، ولد بمكة عام (٥٠ ق .هـ) وأسلم عام الفتح ، ولاه أبو بكر وعمر ، ثم أقرّه عثمان على الديار الشامية ، تنازل له الحسن بن علي عام الجماعة ، غزا جزر البحر المتوسط والقسطنطينية وكثرت فتوحاته ، توفي عام (٦٠ هـ) .

النواقيس ، فأراد أن نقتل هذا على الأذان ، فيقتل من قِبَلَهُ منا ببلاده على النواقيس ، والله ليرجعنَّ إليه بخلاف ما ظنَّ ، فكساه وحمَّله ، فلما رجع إلى معاوية قال : أو قد جئتني سالماً ؟

قال : نعم ، أما من قبلك فلا[1] .

* * *

يا أمير المؤمنين!!

وقف الإمام الأوزاعي أمام الخليفة المنصور ناصحاً فقال :

يا أمير المؤمنين : من كره الحق فقد كره الله ، إن الله هو الحق المبين ، إن الذي ليَّـن قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم ، لقرابتكم من رسول الله ﷺ ، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً ، مواسياً لهم بنفسه في ذات يده ، محموداً عند الله وعند الناس ، فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق ، وأن تكون بالقسط له فيهم قائماً ولعوراتهم ساتراً ، لا تغلق عليك دونهم الأبواب ، ولا تقم دونهم الحجاب ، تبتهج بالنعمة عندهم ، وتبتئس بما أصابهم من سوء .

يا أمير المؤمنين : إن المُلك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك .

يا أمير المؤمنين : أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك :

﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

[الكهف : ٤٩] .

---

(١) من عيون الأخبار لابن قتيبة : ١/ ١٩٧ .

قال : الصغيرة التبسُّم ، والكبيرة الضحك ، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن ؟!

يا أمير المؤمنين : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة ، لخشيت أن يسألني الله عنها ، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟

يا أمير المؤمنين : إنك قد بُليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، ولقد حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن سلمة أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدشٍ خدشه أعرابياً لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً ولا متكبراً ، فدعا النَّبي ﷺ الأعرابي فقال : « اقتصَّ مني »[1] .

يا أمير المؤمنين : أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك :

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] . قال الله تعالى في الزبور : يا داود إذا قعد الخصمان بين يديك ، فكان لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك عن نبوتي ، ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة ، يا داود إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل ، لعلمهم بالرعاية ، ورفقهم بالسياسة ، ليجبروا الكسير ، ويدلّوا الهزيل على الكلأ والماء . . .[2] .

* * *

---

(١) رواه الحاكم وابن أبي الدنيا .

(٢) باختصار من مواعظ الخلفاء : لابن أبي الدنيا .

ماذا عن الشمعة ؟!

وفد على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بريد من بعض الآفاق ، فانتهى إلى باب عمر ليلاً ، فقرع الباب ، فخرج إليه البواب ، فقال : اعلم يا أمير المؤمنين أن بالباب رسولاً من فلان عامله ، فدخل فأعلم عمر ـ وقد كان أراد أن ينام ـ فقعد ، وقال :

ائذن له ، فدخل الرسول ، فدعا عمر بشمعة غليظة ، فأججت ناراً ، وأجلس الرسول وجلس عمر رضي الله عنه .

ثم سأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار ، وأبناء السبيل والفقراء ، وهل أعطى كلَّ ذي حق حقه ، وهل له شاكٍ ، وهل ظلم أحداً ؟

فأنبأه بجميع ما عمل الرسول من أمر تلك المملكة ، فلم يدع شيئاً إلا أنبأه به ، كل ذلك يسأله ، فيحفي (يلحّ) السؤال ، حتى إذا فرغ عمر من مسألته ، قال له :

يا أمير المؤمنين : كيف حالك في نفسك وبدنك ؟ وكيف عيالك وجميع أهل بيتك ؟ ومن تُعنى بشأنه ؟

فنفخ عمر الشمعة ، فأطفأها بنفخته ، وقال : يا غلام عليَّ بسراج ، فدعا بفتيلة لا تكاد تضيء ، فقال : سل عمّا أحببت .

فسأله عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته ، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها ، وقال : يا أمير المؤمنين ، رأيتك فعلت ما رأيتك فعلت مثله! قال : وما هو ؟

قال : إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك .

فقال عمر : يا عبد الله ، إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تقِد بين يديَّ فيما يصلحهم ، وهي لهم ، فلما صرت لشأني ، وأمر عيالي ونفسي ، أطفأت نار المسلمين!![1] .

❊ ❊ ❊

ما هو السِّرُّ الَّذي بين الله والعبد ؟

قال الفضيل بن عياض عن الإخلاص : هو ترك العمل من أجل الناس رياءً ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وقال الجنيد : الإخلاص سرٌّ بين الله وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله .

لكن ما هي ثمرات الإخلاص ؟ .

١ـ قبول الله تعالى من المخلص : كما ورد على لسان سيدنا رسول الله ﷺ :

« إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه » .

٢ـ صرف السوء والفحشاء عن الشخص المخلص .

٣ـ نصر الله للمخلصين : كما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة ، من ذلك :

« إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم »[2] .

---

(١) للتوسع راجع سيرة عمر بن عبد العزيز لمحمد بن عبد الحكم : ١٥٥ وما بعدها .
(٢) رواه النسائي .

٤ـ محبة الله تعالى لمن أخلص له ، كما ورد على لسان المصطفى ﷺ :

« من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راضٍ »[1] .

٥ـ انقطاع الوساوس عن الإنسان .

٦ـ تفجُّر الحكمة على لسان المخلص لله : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

٧ـ زيادة تضاعف الحسنات ، كما في قوله تعالى :

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

بل زاد الأمر إلى سبعمئة ضعف ، ثم والله يضاعف لمن يشاء ، وهذه الزيادة في الأضعاف تنمو بحسب تمكُّن الإخلاص من نفس المؤمن ، فكلما زادت مكانة الإخلاص في قلبه ازداد علواً ، فزادت بذلك مثوبته وأجره عند الله على الحسنات التي يقدمها .

* * *

فطنة الخلفاء الرّاشدين :

● روى أنس رضي الله عنه قال : لما هاجر رسول الله ﷺ كان يركب ، وأبو بكر رديفه ، وكان أبو بكر يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام ، فكان يمرُّ بالقوم فيقولون : من هذا بين يديك يا أبا بكر ؟ فيقول : هادٍ يهديني . . .

● وروى أسلم عن أبيه قال : قدمت على عمر بن الخطاب حلل من

---

(١) رواه ابن ماجه .